

التفكير الاجتماعي والتنظير السوسيولوجي

تكوك تواتي¹

مقدمة :

إن عنوان الغريال يحيلنا إلى نسيان الحملات المعرفية العربية، كونها أصبحت مجرد تراث إفتقد المعنى والشحنات المعبرة و القدرات المفسرة لواقع معاصر لا يعيش الحداثة كما هي بكل تجلياتها وبكل عبقريتها و ان كان البعض يعيش كل صدماتها ربما كما كان الحال مع ميخائيل نعيمة ومن اصطف في صفه من المغتربين المنبهرين بزخرف الغرب.

ما عدا بعض الشخصيات التي تعد على الأصابع و التي حافظت على زادهما القيمي والعلمي واستطاعت أن تكشف كل النقائص الموجودة في الأدبيات و النظريات الغربية من منطلق عقلاني وإنساني محض، بعيدا عن كل حساسية عرقية أو ذاتية تفقد الطرح قيمته وموضوعيته، كما واجهت أيضا كل الأخطاء و الادعاءات العنصرية في التراث العربي بما تقتضيه أساليب البحث الدقيقة .

فهي لم تكن من أنصار الأصولية التراثية و لا من مؤيدي الدغمائية الحداثية أو العلموية المابعد حداثية و من أهم الأسباب التي أهلتها أن تقف هذا الموقف هو مسار تكوينها العلمي و تعرضها لقضايا ومساائل بعين أحاطت بجميع التفاصيل لتمحصها بعقل صاف وخال من كل خلفيات قد تشوش على فهم منطق الأشياء بالمعنى الدوركامي* وحركتها ، إضافة إلى التجربة الاجتماعية الطويلة بين عالمين مختلفين ، بين شرق لازال يؤمن بالقدر والطبيعة و ما ورائها و بين عالم تحكمه داروينية اجتماعية عزلت الدين منذ أمد بعيد ، عندما نتحدث عن هذه التجارب فنحن نتحدث عن كل ما صادفها في حياتها العلمية و العملية و الإنسانية في جميع المجالات والمستويات التي اشتغلت بها.

من أبرز هذه الشخصيات التي تتطابق عليها هذه الموصفات هي مالك بن نبي و عبد الوهاب الميسيري فكلاهما عانى من الغربة و أزمت فكرية و معرفية و تقلبات إيديولوجية جعلتهما يمتازان و يتميزان عن البقية بطرح له قراءاته الخاصة و استقرائه لوضع معقد جدا يمتاز بالكثير من الخلط والغمض و التكديس ، لذلك سارعا إلى حللته وخلخلته مع التأكيد على اختلاف طفيف في التجربة فمالك بن نبي منذ البداية كان متشبعا بالطرح الإصلاحية المدرسي الباديسي و اقترابه من الماركسية الماوية بخلاف الميسيري الذي تميزت حياته الإيديولوجية بالتحول من الماركسية إلى الإيديولوجية الإسلامي². لكن السؤال المطروح ما هي أهم سمات التنظير العربي الموجود المتهم بالهزال و التلفيق؟و ما هي أهم المخرجات

¹ باحث في علم الاجتماع الثقافي، جامعة وهران

² عبد الوهاب الميسيري، الثقافة و المنهج. تحرير:سوزان حرفي، دمشق:دار الفكر، 01، 2009 ، ص24.

*نسبة الى اميل دوركايم 1858(1917 -) عالم اجتماع فرنسي، من كبار الرواد السوسيولوجيين أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معا واحد متأثرا بدقة بالمنهج التجريبي والعلوم التجريبية. أبرز مؤلفاته تقسيم العمل الاجتماعي، قواعد المنهج السوسيولوجي، الانتحار، الاشكال الاولى للحياة البدائية .

النقدية لتجاوز مثل هذا الضعف النظري؟ وما هي إسهامات كل من مالك بن نبي و المسيري النقدية و التأسيسية لنظرية عربية تتماشى مع احتياجات المجتمع العربي و مقتضيات العصر الحالي ؟

1 ضرورة نظرية عربية :

إن حالة الركام و التكديس النظري بلبلة العقول و جعلت كل يغني على ليله، حاملين شعارات قديمة ومستهلكة أفقرت أكثر مما أثرت استوحت شرعيتها من التجارب التحديثية الفاشلة التي خاضها العقل السياسي العربي خاصة في الحروب التي شنّها ضد الكيان الصهيوني و التي أصابته بنكسة ماضوية أحييت نصوصاً ساهمت في تحفيز النفوس إلا أنها لم تحقق معجزات اجتماعية في التصدي للفقر والمخدرات و التفكك الأسري أو نماذج سياسية في إرساء الديمقراطية و العدالة وحرية التعبير و حقوق الإنسان و لا اقتصادية في دفع عجلة التنمية والخروج من نمط الاقتصاد الاستهلاكي الريعي ومحاربة الغش و الفساد .

بل ألهمت الصراع الفكري و الإيديولوجي بمزايدات حول الوطنية و الخيانة و شعارات رنانة جوفاء لا تقدم للجماهير سوى الوهم بإدخالهم للفردوس السماوي (فردوس الإسلاميين) أو فردوس الأرض (فردوس التقدميين والداثيين) ونحو التسلط على المجتمع و امتلاك السلطة خرج النقاش من الأطر الأكاديمية و الروح العلمية إلى ممارسة الإرهاب الفكري ونمت و تطورت أسقام و أشكال مرضية لدى النخب تتعلق بالمازوخية والفيختية الفكرية (كما عدد لذلك عبد الاله بلقزيز)¹.

و عليه يمكن أن نحدد ثلاث اتجاهات متصارعة فيما بينها حول ضرورة التراث من عدمه² :
أ . الداثيون : الذين يرون أن تحديث العقل العربي لا يكون إلا بالقطيعة المطلقة مع التراث لتحقيق الحداثة.

ب . التراثيون : أي المتشبثون بالتراث المحذرين من حيلة القطيعة و بهرج الحداثة لأن في ذلك مدخل من مداخل الهيمنة العالمية الجديدة .

ج . الوسطيون (التأصيليون المعاصرون) : وهم من يرون في العلاقة مع التراث علاقة اتصال وانفصال في الوقت نفسه و هو ما يدل على استنادهم على الماضي لبناء الحاضر وفق قيم العصرنة والحداثة الحقيقية .

إن كان كل هؤلاء متشبعون بأسس و مبادئ نظرية و أصحاب قناعات و أهداف سياسية تتراوح بينهم بين الشك واليقين و بين المداولة و الفصل فيوجد بينهم للأسف من هم دونهم أو أقل منهم بكثير ،

¹ عبد الاله بلقزيز , نهاية الداعية "الممكن و الممتنع في أدوار المتقنين" . المغرب و لبنان: المركز الثقافي العربي , ط 1, 2000
ص 38,44 .

² عبد العزيز حمودة, المرايا المقعرة "نحو نظرية عربية نقدية". الكويت: عالم المعرفة , 2001, ص 181 .

إلا أنهم يظنون في هذا فرصة لتسويق أنفسهم كمنظرين أو مؤدلجين و لديهم من الجسارة الكافية للإدلاء برأيهم في مواضيع كثيرة تحتاج للدراسة والتبصر .

و فريق آخر هم بالخطورة بما كان على العقل العربي لأنهم يقفون في الوسط بين كل هذا و ذاك بدون علم أو فقه بما يجري من حولهم مستأنسين بكل التيارات لا يفرقون بين غث و سمين¹.

إن هذا العراك يقع في خانة المرجعية و الهوية التي يجب أن يحتكم إليها الخاص و العام في خلجات أنفسهم وخطرات بالهم و أفعالهم و نشاطاتهم، لكن هذه المرجعية ليست بقدرتها المعهودة في إيجاد تأويلات تحفظ لها وجودها في تعاطيها مع ما يدور حولها بالتقنيد و الابتكار ، بل دجنت و أضيف لها من المفاهيم و المصطلحات التي زادت في إشعال جذوة رفض التاريخ العابرة للقارات بحكم عدم جدواها و قلة فعاليتها و عجزها على التعبير والشرح والتفسير بخلاف ما عهد على اللغة العربية - كحارس لهذه المرجعية - التي امتازت ببيانها و تبينها.

لنذكر على سبيل المثال بعض المفاهيم التي خرجت عن إطار ما اصطلح عليه "المواضعة" التي تتعلق بشروط يتم فيها التفاعل مع ثقافة واردة وفق ما تقتضيه الاحتياجات المعرفية للثقافة الأصلية في تفاعلها مع الآخر و إن كانت هذه الشروط غير موجودة في الحقل المعرفي و الأكاديمي العربي بسبب تعرضه للكثير من التخريب و الابتذال لأنه لم يحترم ذاته و وقف مبهورا مندهشا أمام ثقل نظريات لها من الترسانة في التفكير و البناء و التأويل ما لها فجعلته يشعر بحال من الأحوال بجهل كبير منعه من الانتقاء و الفحص و إعطائه دلالات لمدلولات لا تعكس معناها لا من قريب أو من بعيد لأنه رضي بالسهل الممتنع دون أن يحفر في تاريخية التراكم أو في رواسبها واشتقاقاتها فوقع تحت طائلة الإسفاف و الارتجال².

من بين تلك الأمثلة نورد المقارنة التالية بين مضمونين لمفردتين اثنتين هما (الخطاب) و (النص) وما يعنيه كل منهما في النسق العربي و الغربي.

إذا كان الخطاب في القاموس العربي اللغوي و العلمي يعني كل ما هو مفروض شرعا فقط بدون إشارات أي أنه يحيل إلى الكلام و إلى كلام الله تحديدا كما أتى في القرآن الكريم " و آتيناه فصل الخطاب " أو "عزني في الخطاب" ، كما يحيل معنى النص إلى علم الأصول فالنص لا يحتمل التأويل كما عبر أبو حامد الغزالي إذ يوجد تطابق كبير بين المعنى اللغوي و الاصطلاحي في تعريف النص بحكم أن النص الذي هو قرآن أو حديث هو مصدر للتشريع (عبادات، عادات، معاملات) و عليه فكل ما شرع منه لا يقبل الاختلاف لأنه يحمل معنى ظاهر للجميع ، بخلاف معنى النص و الخطاب في

¹ نفس المرجع ص 158 .

² عبد الله الابراهيم، الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة. الجزائر: دارالاختلاف، الرباط: دارالآمان، لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1. 2010. ص 130 .

المعرفة الغربية والذي يعني وفق علم اللسانيات و التأويل أي الخطاب "الكل" أي السياق أما النص فيعني الجزء الذي يعمل في سياق هذا الكل من خلال الكتابة و الكلام و الصورة والإشارات و الرموز أي كل ما يوحي إلى ذلك الكل¹ .

و هكذا أراح المعنى الغربي للخطاب و النص المعنى العربي و لم يدخل معه في لقاء مواضعي، يضع المفهوم الأنسب والأصح الذي يليق بخصوصية الصيرورة العربية لتتضح الصورة أكثر لا بأس من سرد شاهد آخر. لماذا يؤخذ تعريف ريفردي Reverdy للصورة الشعرية كتعريف معتمد في الكتب و المؤلفات العربية ويترك مثلا تعريف عبدالقاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة ؟

لنسرد التعريفين الإثنيين و ننظر أيهما بلاغة و فصاحة في تقريب المعنى².

التعريف الأول لريفردي "إن الصورة إبداع ذهني صرف و هي لا يمكن أن تتنبثق من المقارنة و إنما تتنبثق من الجمع بين حقيقتين و واقعيتين تتفاوتان في البعد قلة و كثرة ... و إنما... يمكن إحداث الصور الرائعة تلك التي تبدو جديدة أمام العقل بالربط دون المقارنة بين حقيقتين بعيدتين لم يدرك ما بينهما من علاقات سوى العقل."

التعريف الثاني للجرجاني " و هكذا إذا استقرت التشبيهات و وجدت التباعد بين الشئيين كلما كانت أشد كانت إلى النفوس أعجب و كانت لها النفوس أطرب و كان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب" .

هذا المثال يعكس جلدا كبيرا للذات و تقزيمها لدرجة ألا ترى القدرة الإنشائية و التعبيرية للتعريفات العربية، إن النص العربي في حاجة إلى إنعاشه برمييه في حلقات التداول و التلقي ، اذ لابد من التخلي عن التبعية في كل شيء و التي لم تزد العقول العربية إلا خبالا.

أولا لأنها ليست ابنة البيئة المعاشية فهي تعبر عن أطر سوسيو معرفية مغايرة تماما .
ثانيا أسئى ترجمتها و نقلها بحسن أو سوء نية .

فلو زدنا الى مفهوم النص والخطاب مفهوم التفكير والقطيعة لوجدناها مفاهيم بقدر ما فيها من الإيجابية بقدر ما أحالت أو أسست لوقائع غير موجودة و حوارات عقيمة بمعنى أنها أوجدت فوضى مفاهيمية و اصطلاحية خلاقة فالتفكير أوجد معنى اللا شرعية أو اللا كل والقطيعة أوجت بمعنى الفراغ و التشرذم و التفتت³، هكذا نسأل مع الغدامي* عن مدى حضور المعنى و غيابه في تلاقي ثقافتين

¹ نفس المرجع، من ص 141 الى ص 149 .

² المرجع السابق ، ص 174 .

³ نفس المرجع، ص 152 .

مختلفتين و هل لابد من هذا اللقاء بمعنى هل هو ضرورة تفرضها احتياجات الذات العارفة أم هو يدخل ضمن تكتيكات و حسابات الذات العارفة المزيفة التي ضعفت أمام هيمنة الثقافة الغالبة على العالم. و عليه لابد من نظرية عربية ذات معالم تعمل منها و مواضيع تعمل عليها ، تحقيقا و تدقيقا ، تنميها ونقدا ، تجاوزا ومفارقة ، لأنه توجد من الدوافع ما بها يتحقق التطلع و الانطلاق و من الأسباب ما تزيد في النكبة والجهل والمراء وأول ما يبدأ به تقوية الثقافة خاصة الثقافة النخبوية من أجل تقوية المعرفة هذه القوى المعرفية والثقافية هي ما اجتمعنا في شخص بن نبي و المسيري ، بحكم اطلاعهما الواسع وشبكة العلاقات المترامية الأطراف التي أسسوها في العالم العربي والعالم ككل إذ مكنتهما من استنتاجات هامة وإنتاجات علمية مهمة لها أصالتها و أحزمتها ووسائلها الخاصة في تطوير العلم واستغلال وسائل التكنولوجيا لما يتناسب مع ذوقها وقيمها .

لإيجاد نماذج مشابهة يجب البحث في معرفة الظروف الموضوعية الخاصة بمجتمعنا و كتسب خبرات تميزنا عن غيرنا لتشكيل منظومة مفاهيمية و بناءات معرفية متحررة من كل عقدة نقص أو تقوق¹، هذا بالفعل ما قام به المسيري و بن نبي في وضع متغن و كأنهما يسيران على خطى بن خلدون وهو يرقب انحطاط الحضارة الاسلامية والتكالب المغول والوندال عليها فترى ما الإضافة التي قدمها كل منهما على حدا ؟ ماهي القضايا المشتركة التي شغلتهما تفكيرا و تنقيا ودراسة ؟

2 مالك بن نبي :

* عبدالله بن محمد بن عبدالله الغدامي من مواليد عام 1946 في عيزة . أكاديمي وناقد أدبي وثقافي سعودي، أستاذ النقد والنظرية في كلية الآداب، قسم اللغة العربية، بجامعة الملك سعود بالرياض. حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة إكستر البريطانية، وهو صاحب مشروع في النقد الثقافي وآخر حول المرأة واللغة. كان عضوا ثابتا في المباحثات الأدبية التي شهدتها الساحة السعودية، و نادي جدة الأدبي تحديدا في فترة الثمانينات بين الحداثيين والتقليديين. لديه كتاب أثار جدلاً يؤرخ للحدثة الثقافية في السعودية تحت اسم (حكاية الحدثة في المملكة العربية السعودية).

¹ شفيق إبراهيم صالح الجبوري، علم الاجتماع المعرفة عند أين خلدون "دراسة نظرية تحليلية". عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع . ط1، 2012، ص215 .

* ولد مالك بن نبي سنة 1905 بنيسة أقصى شرق الجزائر ثم أنتقل إلى قسنطينة مسقط رأس عائلته الأول ليزاول دراسته بها وهناك إحتك بالمدرسة الباديسية وأعلامها و تأثر بهم أيما تأثر اشتغل في سلك القضاء بأفلو ثم تبسة ثم انتقل إلى فرنسا ليتم دراسته بها فأقام بها زهاء عشرين سنة و حينها أتم دراسته كمهندس للكهرباء ، قد كانت له العديد من الرحلات في العالم العربي إلى سوريا وليبيا و السعودية وفي مصر قام بترجمة أعماله بمبادرة من بعض رفقاءه و طلابه ، عندما أخذت الجزائر استقلالها عاد ليعمل كمدير عام للتعليم العالي ، استقال من منصبه سنة 1967 ليتفرغ للعمل الفكري له العديد من المؤلفات و المقالات والندوات ، توفي يوم 31 أكتوبر 1973 .

قد لخص مالك بن نبي مشكلة الحضارة كلها في مشكلة الإنسان ، و مشكلة الإنسان المسلم في تموقعه فيما بعد الحضارة أي الخراب الذي خلفه إهماله لموروثه و لهته وراء بريق الحداثة الذي لم يزد في تلك الصورة الرمادية المأساوية إلا المزيد من العفن و العدمية ، لتجد الأجيال الحالية التي سبقتها كبن الطبيعة المتوحش L'enfant sauvage فهو لا للطبيعة ينتسب و لا من التاريخ يقترب لا معايير تحكمه و لا قيم ترشده و سبب كل هذا في الرؤية البنابية الأفكار الميتة المتوارثة و الأفكار الميتة المستغلة بصورة جيدة في حلبة الصراع الفكري للحفاظ على مواقع الإستقواء و الاستعلاء العالمي.

إن حالة الوهن و الهوان هذه كما يشخصها إبن تبسة هي نتاج عوامل داخلية و خارجية أي هي نتاج قابلية الاستعمار و الاستحمار الذين عطلا عملية الإقلاع الحضاري المنشودة و خربا كل وسائل وشروط النهضة الممكنة في تحقيق جو ثقافي كأرضية سوسيونفسية تذيب كل الشوائب الموجودة على خط طنجة جاكرتا بأدوات النقد الذاتي بمناهج تربوية تعيد للأمة ريادتها و فعاليتها على سائر الأمم والشعوب الأخرى بحكم مالها من مخزون إيماني و جمالي و أخلاقي و اجتماعي و اقتصادي وسياسي . على ضوء هذا ماهي أهم الأعطال و الأوبئة التي شخص لها بن نبي و ما هي الوصفة العلاجية التي حددها للتعامل مع هذه الأمراض ؟

1- الاستعمار : ان مالك من أكبر ضحايا المستعمر الفرنسي و هو كذلك من أكبر محاربيه لأنه استطاع بذكاء كبير أن يكشف كل خدعه و آلاعيه الماكرة و أخطر ما تخشاه القوى الإمبريالية هي النخب الواعية الفطنة ، فتعامل بن نبي مع محرك الصراع أنذاك ماسينيون لم يكن مع شخص فقط وإنما قوى أرادت أن تسلب الملغاشي أو الأهالي بوصفها الإحتقاري أرضهم (تراهم) و هويتهم وتجعل منهم مجرد روبوتات تؤمر فتنفذ.

إن الاستعمار لم يكن رأسمالية متوحشة و فقط أي نفوذ يسلب و ينهك و يعذب و يقتل و إنما أثر و مد فكري يسلب الأرواح و الآلالباب بإفشاء الجهل عن طريق بعض الزوايا الصوفية الناشرة للبدع والشركيات و بإرساء مدارس فرنسية أنتجت "مولدين " من نوع آخر لازالوا يدافعوا عن أهم فرنسا و يرون فيها الخلاص لكل المشاكل ويزيدون من حدة النقاش حول الهوية و اللغة¹، التي فصل فيها أصلا بالنص الدستوري ، لكن ما تعمل عليه فرنسا و كل قوى الاستعمار أن تبقى تلك البلدان المستقلة و الحركات السياسية فيها تستدعي في كل مناسبة أوبدونها مواضيع تتعلق بالثوابت لا لشيء إلا إلهائها و تضییع وقتها و هدر طاقاتها و هذا ما تبغيه أجهزة الهضم التي خلفتها ورائها كحارس لمصالحها أو كما أسماه الرئيس الراحل هواري بومدين بقايا الحركة ، يقتاتون مما تجود به عليهم . و قد كشفت الأيام عن أسماء عربية كانت وراء هزيمة 1967 لاعبة دور الخيانة بامتياز و كما يقول المثل الحضارات تسقط لكن العملاء باقون.

¹ مالك بن نبي، من أجل التغيير. الجزائر: دار الوعي، ط1، 2013، ص26 .

إن الاستعمار كما يقول بن نبي " لا يستطيع أن يترك بلدا كان يستعمره و يغادره هكذا و بكل بساطة مخليا ورائه المكان للاستقلال الجديد"¹.

لتعد هكذا لمرحلة أكثر خطورة تنتقل فيها من الصراع المادي العسكري الاستيطاني إلى الصراع اللا مادي النفسي الذي تحركه مراصد و مراكز بحث و دراسات و شخصيات أفنت عمرها في الإستشراق والإثنولوجيا لتقف على التركيبات الشعورية العاطفية و العقلية للشعوب العربية و الإسلامية لتعمل على مكامن ضعفها و من أهم تلك الخيوط التي حبكت بها شراك الصراع الفكري في البلدان المستعمرة كما دون بن نبي نذكر :

أ - ألبسيكوز (الذهان): و يتجلى في تهويننا للأمور العظيمة الجليلة و تعظيمنا للأمور الصغيرة التافهة فبهذه الطريقة خسرنا فلسطين فبعد رحيل الانجليز منها ظن العرب أن هذه البلاد ردت اليهم و بعد مجيء بواخر اليهود و بعض الأعمال التي قامت بها عصاباتهم ظنوا أنها مجرد جماعات يمكن الفتك بها بين عشية و ضحاها و سرعان ما انكشف السحر للمسحور ليجدوا أنفسهم يواجهوا الاستعمار القديم بأشخاص و معتقدات جديدة .

من بين ما قال بن نبي حول هذا المفهوم نستذكر "علينا أن نخشى الاستعمار عندما يستعمل حبة الرمل أكثر مما نخشاه حين يستعمل القبيلة الذرية لأن عمله حين يفلت تماما من إطار مراقبتنا فهو اذاك يعمل على المستوى الميكروسكوبي"².

ب - الذرية أو (التجزئية): و هي عدم القدرة على تجميع الأفكار و الحوادث أي التعاطي مع كل واحدة على حدا دون معرفة الرابط المنطقي و السببي بينهما و هذا إن دل إنما يدل على عقلية عربية عاجزة على فهم حركية التاريخ وواقع المجتمع المعاصر³.

ج - تشويه القوى الواعية : و المقصود بذلك تلك الإشاعات التي ترسلها القوى المناوئة عندما تشعر بانكشاف خدعها من قبل جماعات متعلمة مثقفة فسرعان ما تكيل لهم حزم التهم و تقذفهم بأشنع النعوت و الصفات لتحرض الجماهير عليهم و تنفرها منهم ، مضيقه عليهم دائرة عيشهم بين زملائهم وطلابهم وأسرههم كي يصبحوا منبوذين و غرباء بين أهليهم و أوطانهم فتفقدهم مصداقيتهم وشرعيتهم امام الراي العام فبدل ان يصبحوا قدوة ومثلا يتحولون الى شياطين ملاعين.

ما يقلق المستعمر أكثر هو قدرة تلك النخب على استقرار الواقع و توليد الأفكار الناجعة النظرية والعملية لتجاوز حالة الغبن و الكساد المعاش فيسارع لتحريك أتباعه ليلحقوا أولئك المتمردين خوفا من أن تتحول تنظيماتهم إلى سياسات عامة تقود البلاد أو حركات تبشيرية فيسعى هو و من جندهم إلى

¹ نفس المرجع، ص 36 .

² نفس المرجع، ص 109,110 .

³ مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دمشق: دار الفكر، ط9، 2009، ص 55 .

التشكيك في قيمة تلك الأفكار الخلاقة و الأخلاقية من حيث كونها صادقة أو في مستوى عقلانيتها أي في مدى استيعابها للأزمة و في امكانية مشروعية إنجازها أي بتعبير بن نبي يسعى إلى تشتيت الوحدة المقدسة للفكرة أي روحانيتها و سموها فتضطر بفعل الإشاعات و الدعايات للرجوع من حيث أنت وحينها يشعر صاحبها بالإحتقار و القمع و العزلة و الموت البطيء .

د - التبعية الاقتصادية (النفطية): يجب أن نتحرر من كوننا دول استهلاكية و شعوب إتكالية و نكون دول منتجة و شعوب عاملة و ذلك من خلال تحقيق اقتصاد القوت كما أسماه بن نبي ، اقتصاد التنمية ممتص من كل الاختلافات السياسية وفق ما يحتمه مبدأ المصير المشترك المحصن للدولة في الداخل والخارج من المضاربين والمحتكرين للأسواق.

للخروج من التبعية لابد من إقلاع اقتصادي يعمل على الاستثمار الاجتماعي اولا لا المالي و من أجل تحقيق الإكتفاء الذاتي بل التصدير للخارج يجب العمل على تحريك عجلة التصنيع و تصليح الأراضي كما فعلت هولندا و فرنسا في بوردو تحقيق التكامل الاقتصادي العربي في كل المجالات كضرورة تفرضها التكتلات العالمية مع منع لكل تلك الشروخات و التصدعات التي أصابت هيئات افريقية و آسيوية فيما مضى .

إن تجاوز كل هذه الأعطال لا يكون بصب رؤوس أموال فالاستثمار المالي ما هو الا سيروم لإنعاش جسد متهالك أما العلاج الحقيقي كما سبق وشرنا اعلاه فهو في الاستثمار الاجتماعي أي في الإنسان بجعله أكثر عطاء و أداء و تقديما للواجب عن الحق و في تقديسه للوقت و مقته للبيروقراطية بمعناها النسقي السلبي، ضمن هذه الشروط ترتفع وتيرة الإنتاج وبتوج الفكر و يتحقق الاستقلال الحقيقي¹ .

2 - القابلية للاستعمار: هي نتاج الدور الدائم الذي يلعبه الاستعمار في التسويق لنفسه على أنه صاحب الإبداعات و الابتكارات . منقذ البشرية و مخلصها من كل أوجاعها . و في تجريحه للآخر و جعله أدنى رتبة منه لأنه جاهل و فقير و شرس ، فيتسلل إلى مخيال الآخر بطريقة لا شعورية عدم امتلاكه للكفاءة و لا الاستطاعة التي تؤهله في أن يكون على مستوى غريمه فيجزع و يسلم و يهين إنسانيته بأن يرضى أن يكون تبعا لغيره.

على هذا النحو يوطد الاستعمار لنفسه في ان يجعل أعداءه عبيده لأنهم في لحظة تاريخية انهزمت نفسياتهم وانكسرت روحهم لترى في الاستعمار الكبرياء و العظمة ، و بطريقة لا واعية تقع الشعوب تحت مخدر القابلية للاستعمار ، فهي مولعة به في حلها و ترحالها و لفك هذه العقدة يدعوا بن نبي إلى إخراج المستعمر من الأنفس كي تتحرر منه الأوطان².

¹ مالك بن نبي، بين الرشاد و التيه، دمشق: دار الفكر، ط1، 1978، ص66، 65 .

² مالك بن نبي، شروط النهضة. تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دارالفكر، ص 54

3 - شروط النهضة الحقيقية : بعد تحديد أهم المعالم الباتولوجية في التشخيص البنابي و التي تتضمن جرائم عديدة أولاها بالفحص الدقيق كالتكديس و السلعة و التشيؤ و الشعوبية و البوليتيك بحرف B الفرنسي لا P، قام بن نبي أيضا بشرح أهم المرتكزات التي تقوم عليها الحضارة و المراحل التي تمر بها و لنبدأ بمسألة كانت في صلب المشروع البنابي كقاعدة لإقلاع مسلم ما بعد صفين و ما ما بعد الموحدين:

أ- الثقافة : لقد عرفها أحد علماء الاجتماع على أنها "مجموع أساليب تكييف الإنسان للظروف تكييفاً يجمع بين الانتقاء و التنوع و الاختلاف"¹ نستطيع ان نضيف التفوق او التجاوز والتطور، لو تأملنا التعريف جيداً لوجدنا المشكلة على محور طنجة - جاكارتا في عدم وجود وسائل ملائمة تتماشى و الخصوصية المحلية لتجعل التكيف ممكن ومقبول ومرحب به كإضافة يفرضها التنوع الثقافي أو كضرورة تتطلبها المنفعة و الحاجة البشرية .

إلا أن واقع الحال هو عيشنا في تخلف ثقافي رهيب إذ أصبحت تلك الوسائل المستوردة حاجات والمضامين التي تحملها قيم للمفاخرة و المباهاة في حالة تعكس فراغ نقدي و محاكاة مطابقة للغير وإحياءات بذيئة ، مقلدة أو مكررة داخل نطاق المجال العام و الخاص .

للخروج من ثقب العولمة الأسود لابد من تعلم درس مهم بالتاريخ ألا و هو أن لكل حقبة تاريخية وبيئة اجتماعية وسائلها التي تختلف باختلاف الزمان و المكان و لكن للأسف العالم الإسلامي لم يدرك بعد هذه الحقيقة و هو بعد لم يعرف للثقافة طعم و لا لون و لا رائحة و يريد أن يستورد عالم الأشياء (التبعية التقنية) مغفلاً الخطوة الأساسية والولادة الطبيعية و الشرعية للثقافة و الحضارة التي لا تكون إلا عن طريق عالم الأفكار الذي يوفر لامة او شعب ما أشيائه².

إن الثقافة تقوم بصناعة الفرد كما تقوم بصناعة المجتمع كي لا يكون أي تناقض بينهما بالعكس بل يصبح بذلك في حركة تاريخية واحدة موجهة في طريقة مضبوطة و دقيقة نحو الهدف المرسوم لهما ضمن برنامج تربوي يتألف من محاور أربعة يتخذ منها الشعب دستوراً لحياته المتقنة :

- 1 . عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية .
- 2 . عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.
- 3 . منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- 4 . الفن التطبيقي الموائم (الصناعة كما عبر بن خلدون) لكل نوع من أنواع المجتمع³ .

¹ محمد العلي، نمو المفاهيم "تساؤلات و آراء في الوجود و القيم" . المغرب: المركز الثقافي العربي ، 2013 ، ص11 .

² مالك بن نبي، مشكلة الثقافة. القاهرة، ط 2، 1391 هـ ، ص 36ص 39 .

³ مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق، ص 87 .

عندما تلتحم هذه الإيقونات الأربعة في فسيفساء ثقافية تعكس خلفية أنطولوجية لجماعات أو مجموعات أو مجتمعات تعلمت المعنى الحقيقي للثقافة المتجسد في العيش المشترك و العمل المشترك و خاصة الكفاح المشترك¹، و لتحقيق هذا النوع أو المستوى من العيش يجب العبور على ما يسميه بن نبي "الجو الثقافي " والذي لا يكون الا لمحصلة تراكمية تاريخية فأوروبا لم تعرف ثورة الاتصالات و التكنولوجيات إلا بعد حركة الإصلاحات الدينية والثورات الاجتماعية والسياسية ضد الكنيسة و الإقطاع و النبلاء والعلمانية كذلك لم تحقق وضعيتها النسبية إلا بعد جهود العديد من الأسماء و إتاحة القراءة (المعرفة) للجميع بفضل اختراع المطبعة و توفير السبل الحسنة لنشر وتعميم العلم للجميع فالراديو مثلا او غيره من الاختراعات ما كان ليكون جميلا بشكله الحالي لولا اجتهادات هرتز و غيره و علوم الفيزياء ما وصلت إليه الآن هو بفضل اجتهادات آنتستين و من قبله نيوتن و أرخميدس .

تحقيق الجو الثقافي مرتبط بحدّة التوتر داخل الشبكة الاجتماعية المكونة من عالم الأفكار و الأشخاص والأشياء، لا مناص من وجود وازع قوي يدفع نحو خلق الأفكار و تحويلها إلى إبداعات و اختراعات تشجع جهد الفرد و النشاط الاجتماعي ، في تحويل تلك الشبكة إلى شبكة تداولية و تأويلية لمعنى النهضة و التقدم و التطور و التغيير و الإمكان والإقلاع و المواكبة و التجاوز و الريادة و أخيرا الحضارة.

2 عبد الوهاب المسيري:

طالما ألح مالك على المنهجية إذ يقول أن الخطأ المنهجي خير من الصواب العشوائي و هو الذي عرف بطريقته العابرة للتخصصات بجمعه العديد من المشارب في كتاباته ما بين علم الاجتماع و علم النفس و علم الأنثروبولوجيا و اللسانيات و غيرها ، فهو له أسلوبه و لغته في التحليل و الإقناع ، إذ لا يتورع في ضرب أمثلة شعبية و قصص أسطورية تؤدي غرضا توضيحيا ، كما يجب أن لا نغفل طبيعة نصوص بن نبي والاعتبارات التي ملّيت على شخصيته المفكرة .

بخلاف عبد الوهاب المسيري و بالرغم من التشابه الكبير كما قلنا في البداية في الاهتمامات و المواضيع التي وضعوها تحت الدرس بحكم مكانتهم الثقافية في مجتمعاتهم و في العالم ككل ، إلا أن

¹ المرجع السابق، ص134.

• عبد الوهاب محمد المسيري(1938,2008) مفكر و عالم اجتماع مصري تلقى تعليمه الأولي في مدينة دمنهور مسقط رأسه و في عام 1955 التحق بقسم اللغة الانجليزية بجامعة الإسكندرية و عين معيدا فيها عند تخرجه ، سافر إلى الولايات المتحدة عام 1963 و بها تحصل على الماجستير في الأدب الانجليزي المقارن من جامعة كولومبيا عام 1964 و على الدكتوراه من جامعة ريتجز بنيوجيرسي 1969 ، عند عودته إلى مصر قام بالتدريس في جامعة عين شمس و في عدة جامعات عربية وإسلامية كما كان عضو مجلس خبراء و تقلد العديد من المناصب في هيئات إقليمية و عالمية له العديد من الدراسات المهمة على رأسها موسوعة اليهود واليهودية و الصهيونية .

للمسييري نزعتة الاكاديمية الواضحة والسبب دراساته المعمقة و اختياره الأول للعلوم الإنسانية مكنه من الإلمام بالعديد من الجوانب المهمة في هذا الحقل الحساس الذي لا زال يبحث عن نفسه كما قال جون ديوي عن علم الاجتماع باحثاً عن آلية تجعله مستقلاً عن العلوم التجريبية و عن السياسة متحرراً من كل العوائق الذاتية و التحرشات الاجتماعية الفوقية و التحتية .

إلى حد ما استطاع المسييري أن يتخلص من الكثير من المضايقات الداخلية و الخارجية و الضغوطات القديمة والجديدة ليشق لنفسه أسلوب هو أقرب للاتجاه النقدي (مدرسة فرانكفورت) و العقلاني (الفيري)

1. النموذج المعرفي لدى المسييري : لقد أحدث التطور الهائل للعلوم الفيزيائية صدمة على باقي العلوم والمعارف إذ تصدرتها كلها بفضل قدرتها على التحكم في موضوعاتها بسبب دقة مناهجها ومعقولية النتائج و الحقائق التي تتوصل إليها ، مما جعل المختصين في الأدب و الفن و اللاهوت وعلم النفس يتأثرون بها و يتماهون معها في تشييء الظواهر الإنسانية و تكميمها كمحاولة لتطبيق المنهج التجريبي والدافع وراء النزوع الى هذا هو (اعتبار العقل الإنساني واحد في استدلالاته و براهينه وطرق تفكيره فهو يشغل وفق قوانين و ضوابط محددة و ثابتة إنها قوانين كلية صالحة لكل زمان ومكان و من ثم اعتبرت هذه القوانين معايير العلمية و نموذج اليقين)¹.

هذا يخالف السيرة العلمية و المعرفية التي وثقت اختلاف كبير بين العلوم الإنسانية و التجريبية بحكم اختلاف الحقلين و فشل الاستعانة و الاقتباس الاصطلاحي ، هذا الذي أكد عليه ميشال فوكو في الكلمات و الأشياء في نزاعهما بحيث تبرر العلوم التجريبية و جود العلوم الإنسانية و ترى في نفسها سببا لوجودها بينما ترفض الثانية ذلك بدعوى الاختلاف في المنهج و الموضوع .

ان المسييري يرفض هذه القراءة و يرى في كل هذا نتائج لما تقوم به العلمانية الشاملة في محاولة جعل نفسها في مركز الفلك الذي يسبح فيه الجميع من حولها ، لان تيار العلمانية المتصاعد يريد تقويض كل العلوم بنزعة تكميمية تتعاضم فيها خاصية الضبط و التحكم بشكل آلي يفقد الإنسان إنسانيته و العالم ما ورائيته .

لقد آمن المسييري بضرورة التفرقة بين العلوم الإنسانية و الاجتماعية و العلوم الطبيعية و هذا ما لمسّه في الاتجاه الهيرمونيطيقي الذي ناهض النزعة الوضعية باستخدامه لمصطلحات جديدة غير التي كانت أي تغييره و محوه لكل أثر وضعي ، فهو استعمل مثلاً مصطلح الفهم مقابل أو بدل مصطلح التفسير ، ذلك أن الكلمة الأساسية في التأويل والدراسات الإنسانية هي الفهم ، و الفهم هنا يعني كل

¹ عبد الاله ادالكوس، في نقد الخطاب الحدائي "عبد الوهاب المسييري و منهجية المناهج". بيروت و الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي، ط1 ، 2014، ص 20.

الاعتبارات الجانبية للظاهرة الإنسانية و العوامل المركبة لها من الداخل و الخارج أما التفسير فيقصد به السببية التي أبدعها كونت في مجال العلوم الاجتماعية وشيئ لها إيميل دوركهايم.

لإعطاء الفهم بعدا علميا دقيقا و منهجا عمليا فعلا نحت المسيري مصطلح الأقل تفسيراً كبديل عن الذاتية و الأكثر تفسيراً كبديل عن الموضوعية حسما و اثراء للجدل الذي دار حول مشاركة الباحث (الذات العارفة) موضوع بحثها في محاولة فهمها و معرفتها لتلك الجوانب الداخلية و الخارجية المكونة لمادة الدراسة و على إثر هذا نستطيع تقدير ما مدى انسجام و تداخل الذات مع الموضوع ما بين حد أقل و أكثر تفسيراً ، أي أقل تداخلا أو أكثر تداخلا في الموضوع أو أقل انسجام أو أكثر انسجام مع الموضوع¹.

لقد كانت للمسيري مرونة كبيرة في التقرب من العديد من المدارس و النظريات و الرواد إلا أن ذلك لم يمنعه من انتقادهم و كشف بعض أخطائهم و زلاتهم لأنه كان مؤمنا و متشبعا بمبدأ المرجعيات المفارقة أي المرجعيات المؤمنة بفكرة المقدس و عالم اللاهوت و الناسوت و الإتحاد والحلول ومركزية الخالق لا المخلوق.

لقد أبدى هذا الرجل تأثرا كبيرا بالنموذج التحليلي لماركس فيبر كون هذا النموذج ذو خاصية ماكرو

وميكروسوسيولوجية تتجلى في الجمع بين (النمط المثالي) * و (النمط العقلي للفعل)**، عاكسا للواقع كما هو في صور مصغرة تتطابق معه و العلاقات المشكلة لبنية الظاهرة المدروسة و في جمعه للجزئيات الصغيرة و الكثيرة لا بوصفها مضامين متناثرة و إنما بوصفها بنية متكاملة متداخلة مشكلة لمفهوم ينطق عن الواقع و عن الأسباب الداخلية والخارجية للظاهر محل الدراسة².

أما وجه اختلافه مع فيبر فيعود مثلا في إعطاء الأخير بعدا عقلانيا خالصا للحدثة و للمسارات التاريخية الفعالة التي أوجدتها كالبورجوازية و البيروقراطية و الإنتاج و القيم الدينية المسيحية واليهودية التي تدور حول الخلاص والتقصف والثروة و ما إلى ذلك بينما هي في المنظومة الإدراكية للمسيري مجموعة من المغالطات و التلفيقات التي توجي بتطور إيجابي نحو الكمال بينما في الحقيقة هي مجرد تدمير شامل للإنسانية و انعكاس لأنوار مظلمة .

¹ نفس المرجع، ص 28.

² نفس المرجع، ص 34 .

* هو تنظيم عقلي للعناصر المكونة المميزة المدركة بالعقل و هو أيضا مجموعة من العمليات الاستدلالية و الاستقرائية التي يراد منها أن تكون أدوات يمكن بواسطتها إنتقاء و ترتيب جوانب جوهرية من عالم الوقائع.

** هو يعني استخدام الفاعل لوسائل مناسبة على الوجه الذي تفسر به معرفتها من الناحية العلمية كرابط بين غايات الفاعل و أفعاله أي أن الفعل الغائي هو فعل عقلائي له قواعده المحددة .

لا يجب أن نتعجب إذا ما وجدنا المسيري يقتبس مصطلحات من مدرسة فرانكفورت كالإنسان ذي البعد الواحد لهوركهايمر أو استعمار الحياة لهابرماس ، فهو قد أبدع منهجه الذي أسماه ب (التأسيس) والذي يعرفه "عملية إبداعية تركيبية تتجاوز التفكير فهي تتطلب نماذج مختلفة يتم الربط بينها ، كما تتطلب الغوص في كل الأبعاد السياسية و الاقتصادية و الدينية و المعرفية للظاهرة و إعادة ترتيب الوقائع و تصنيفها في ضوء النماذج التحليلية الجديدة و قد اكتشفت أنني لم أعد أفكك و حسب إنما بدأت مصطلحات و مقولات تحليلية بديلة وأصوغ نماذج تحليلية جديدة أكتشف من خلالها حقائق مهمة متناثرة في بطون المراجع المختلفة ، قامت النماذج السائدة بتهميشها و بدأت أمنحها المركزية التفسيرية التي تستحقها كما بدأت أسك مصطلحات جديدة و أعيد تعريف بعض المصطلحات القائمة كما يتفق مع حقيقة الواقع كما أراه لا كما صاغته المراجع و المصطلحات الصهيونية¹ .

بهذه الطريقة يلخص المسيري طريقة عمله في التعاطي مع الروافد من الثنائيات و الثلاثيات والرباعيات و غيرها في العودة إلى كلاسيكيات المراجع ليهضمها كلها فيرشح منها ما يشاء فيحتفظ بما يشاء و يبدع ما يشاء وفق تركيب منطقي ونقدي و تحليلي و تأويلي لما يعاين من حوادث و ظواهر تتعلق بالمجتمع والسياسة و الأدب و الاقتصاد و اللغة والطفل و

2 . أزمة العلمانية :إن التعاريف التي وردت في قاموس أكسفورد للعلماني و العلمانية تشير إلى ما هو واقعي ومادي مستبعدة لكل ما هو ما ورائي و أخروي و هي في مفهوم بيتر جاي Pitter Gay و هو أحد مؤرخي الاستتارة في الغرب نقيض لكل ما هو ديني و مقدس و هي كل ما هو مؤطر في بؤرة الزمان و المكان ، كما عرفت في معجم علم الاجتماع المعاصر لصاحبه فورد هولت على أساس إنها تتضمن معنى الدنيوي غير الروحي غير الديني و تستخدم أيضا في الإشارة إلى تراجع و انحسار الإيمان بالعقائد الدينية التقليدية في مرحلة معينة ، و يقصد بالعلمنة أيضا تراجع الكنيسة و حصر عملها في الجدران المحيطة بها فقط بمعنى فصل الدين عن المجتمع وهذا الطرح يتضمن (دين علماني أو علماني) جديد في كونه ينزع القداسة من الدين و يعطيها للعلم .

بينما التعريفات العربية للعلمانية تختلف فما هو المسيري يقدم تعريف الجابري الذي يرى أن مسار العلمانية يختلف عن ما هو موجود عن المسلمين و العرب لأنه لم تكن لدينا كنيسة تثبت في كل مناحي الحياة وإنما نحتاج إلى ترسيخ مفهوم العقلانية و الديمقراطية ، أما مفهوم أيضا مراد وهبة و عزيز العظمة للعلمانية العربية لا يختلف كثيرا عن العلمانية الغربية فهما متشابهان إلى حد بعيد إذ وجودهما مرتبط في صيرورة تاريخية مادية قامت بفهم و تفسير كل شيء ضمن العقلية و الروح العلمية (العلمانية)

¹ عبد الوهاب المسيري، رحلتى الفكرية"في البذور و الجذور و الثمر سيرتي غير ذاتية غير موضوعية " . القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط1، 2000، ص414 .

كما أفرزت أخلاقاً و قيماً علمانية مناقضة للماهيات والكليات أو كما يسميها نيتشه ظلال الرحمن إنها نزعة السبب و المسبب ، الفعل و الفاعل و المفعول به ولأجله¹.

لقد لاحظ المسيري اختلالاً في مفهوم العلمانية مقترحاً إستراتيجية أخرى لإعطاء العلمانية مفهومها من خلال نموذج تحليلي أسس له من خلال المصطلحات المتقاربة في حقل دلالي مشترك (متداخل) ، وقد كانت هذه المصطلحات كالآتي:

- التطبيع: أي إرجاع كل شيء إلى الطبيعة -النزعة الطبيعية- و التي تقول أن الإنسان جزء من الطبيعة لا ينفصل عنها.

- السببية : بمعنى لا توجد حقيقة مطلقة و بالتالي لا يوجد حق أي الإحساس بالشك الدائم .

- التشيء و السلعة : أي جعل كل شيء عبارة عن سلعة يمكن أن تباع و تشتري في عالم السوق بما في ذلك الإنسان.

- الوثنية : أي بمعنى إنزال أشياء و أشخاص منزلة عالية من التقديس .

- نزعة مركزية الإنسان : إبطال فكرة أن الإنسان هو المركز الذي تدور حوله كل الحياة لأن هذه العقلية هو الذي أصبغها على نفسه .

- نزع القداسة : بمعنى إزاحة هالة القداسة عن كل شيء لأن هذه الأمور لا أساس لها في السببية الصلبة.

- إسقاط السمات الشخصية : بمعنى قولبة الناس في نمط أو فئات معينة كي يصلح التعامل معها بطريقة كمية وهذا بسبب ما فرضته البيروقراطية .

ما يجمع كل هذه المصطلحات هو إلغاء فكرة المقدس و إحلال فكرة الإنسان الطبيعي بدل الإنسان الإنساني (الروحاني/الأخلاقي) ، أي إعادته إلى أصله الطبيعي الحيواني هذا ما أرادت أن تثبته بعض الدراسات الأدبية بتشبيهها للمجتمعات البشرية بالمجتمعات الحيوانية .

إن الأزمة بالدرجة الأولى في نظر المسيري في كون علم الاجتماع الغربي الحديث هو نتاج أو ابن العلمانية فمن المستحيل أن يكون ناقداً أو مخالفاً لها ، فالعلمانية أفرزت طرائق و مناهج سوسيولوجية كمية صورت كل ما هو موجود و رأت في تلك المشاكل و الأزمات مجرد تفاصيل صغيرة تافهة من أجل أن تتم متتالية السعادة التي تريد تحقيقها العلمانية في وصولها إلى حدها الأعلى (العلمانية الشاملة التي تمثل طفرة العلمانية الجزئية) إلا أنها غفلت عن قضايا هامة في البيئة و المساواة و الحقوق و الحريات والتكنولوجية ، و أخلتها من كل قيم إنسانية أو اجتماعية أي جعلتها تحت طائلة التكميم (التشيؤ) والمنفعة واللذة.

¹ عبد الوهاب الميسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2006، ص63، 61 .

إن تصوير العلمانية على أنها طرح تام و جاهز يكذبه الواقع فهي مازالت متتالية تبحث عن نموذجها المثالي والشاهد تطبيقاتها في الحياة الاجتماعية الرسمية فقط في أوروبا أما شعور الناس و تفكيرهم وتفاعلهم يخضع في الكثير من الأحيان للمعتقدات المسيحية أي للمرجعيات المتجاوزة أي لضمير جمعي متوارث لازال حاضرا في وجدان الناس لذلك يمكن أن نتساءل قائلا المسيحي عن مدى علمانية المجتمع الأوروبي أو المجتمع العربي والإسلامي؟

بمعنى آخر النظر في مطالب بعض الحداثيين الداعين لعلمنة المجتمع العربي غافلين عما شهدته أوروبا في مرحلة الستينيات و السبعينات بانتهاء مشروع العلمنة أين بسطت السلطة نفوذها الكلي في الداخل من خلال المؤسسات التربوية كأجهزة إيديولوجية و في الخارج من خلال المؤسسات الأمنية والقضائية محققة لنبؤروسو بتحول الدولة لتتبن علماني عقلاني إلى أبعد الحدود أحرقت ناره كل أثر ديني¹ وان اثبتت حضوره على المستوى الغير رسمي المجتمعي او الشعبي .

خاتمة :

قد شاعت كتابات على شاكلة فلان مع فلان أو فلان ضد فلان ، و أنت تقرأ لعبد الوهاب المسيحي يستحضرك شعور و كأنك تسمع لمالك بن نبي بصوت قوي ، بينما و أنت تقرأ لمالك يجول في خاطرك الميسيري مرة أو اثنتان و السبب أن كلاهما عالجا نفس المواضيع الكبرى مع اختلاف في التصور والمعالجة و الأدوات فبن نبي كان ينتقل من الكل إلى الجزء بينما الميسيري كان يصل بينهما ذهابا وإيابا بحكم اطلاعه المعرفي الواسع و تحكمه المنهجي ليس في ذلك انتقاص لأن بن نبي من طينة المفكرين الكبار و ذلك ما تقتضيه كتاباتهم الفضاضة ذات الأفق الواسع أما الميسيري فهو صاحب اختصاص .

الفرق بينهما فرق في طريقة العمل لا في الاستعدادات و لا في المنطلقات و الأهم من ذلك أنهما أضافا للقاموس العربي مصلحات عززت الترسانة المفاهيمية و العدة المنهجية ليكشفنا عن الأعين كثيرا من شواش الحداثة و نورانية التراث وليفضحا العديد من المغالطات التي تتناقض لا مع الهوية العربية الإسلامية و فقط بل مع الإنسانية ككل .

فالعلم تحول إلى علمانية و علماوية و أحادية عالمية تريد التتميط و القولية و التحويل المستمر الذي لا يحتكم لا إلى قاع و لا إلى سقف من خلال ذريعة النسبية و مركزية عنصرية بيضاء حوسلت الإنسان لتجعل منه مجرد غريزة حيوانية منتجة/مستهلكة أوهمته بقدرتها في تضيق دائرة المجهول و توسيع دائرة المعلوم لأنها عظمت من لذته وتغلبت على ألمه في طريق إنجازها لكل هذا فقد العلم نزعه الإنسانية أو كما يقول بن نبي ضميره الذي يستحضر الله ليمنع الروح من إفسادها و تفسيدها لغيرها .

¹ نفس المرجع، ص 55,56 .

إن التعامل المثمر مع أي فكرة أو مفهوم كما يقول علي حرب يتجلى في مدى امتلاكهما القدرة على الشرح والتفسير و الفهم و التشخيص و الإستراتيجية التحويلية التي يتضمنها كلاهما في تغيير الواقع لا في الوقوف عليه وتصويره كما هو¹.

هذه الإستراتيجية واضحة في الخطاب النقدي الذاتي و الغيري و تتضح أكثر في استعمال اللغة ، لقد أنصف غربال المسيري أدباء المهجر كون غاياتهم كانت نبيلة كما ثمن الكتابات الجزائرية بالفرنسية لأنها حاربت المستدمر بسلاحه محاولة تدوين قضية الشعب الجزائري و كسب تعاطف العالم ، فالرأي عنده أن القلم العربي لا يحتاج تكريم أو اعتراف من غيره لأن فيه من العبقرية التي تسمو فوق كل جائزة حتى لو كانت نوبل فما عليه إلا أن يتكلم بلغة العالم و يتواصل مع غيره في كل بقاع الأرض².

إن النظرية العربية تحتاج إلى شخصيات من هذا الطراز منفتحة على الآخر مخاطبة إياه بما تقتضيه لغته و تؤثر فيه بما تقتضيه الحقيقة و أخلاق العلم و جماليته ، فان كان العالم بحاجة اليهم فنحن ومدارسنا وجامعاتنا ومراكز بحثنا ومؤسساتنا احوج بكثير اليهم وماعلينا الا الاهتمام بعطائهم قراءة وكتابة .

¹ علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المتقف. المغرب و لبنان : المركز الثقافي العربي، 2004 ، ط3 ، ص168 .

² عبد الوهاب المسيري ، الثقافة و المنهج .المرجع السابق ، ص188، 187 .